من الآثار القبيحة للمعاصي (٢٦)

الحمد الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد،،،

الذنب وإن صغر قبيح:

واستناداً إلى كل ما سبق وغيره كثير، فإن الثابت يقيناً أن الذنب وإن صغر عظيم، وإن مقابلة العظيم به، العظيم الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها، بعد من أفظع الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك – يعني العمل القبيح– يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض؟ وملك السماوات والأرض؟ وإله أهل السماوات والأرض؟ ولولا أن رحمته سبقت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، لتزلزلت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد...

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا تقوى التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث يعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

هذا كله إذا كان نزوله إلى المعصية، فأما إن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من أساسه.

العاصي لا يأمن على نفسه من نفسه:

ومن عقوباتها أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره، وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر، والمعاصي تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى له، وأنفع له في الدارين، فإذا وقع مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه.

(يتبع في العدد القادم.. **القلوب تصدأ بالذنوب**)

من كتاب الجواب الكافي – لابن القيم